

قامت دعوة الموحدين في المغرب على يد الداعية (محمد بن توموت المهدي) الذي تزعم فكرة إسقاط دولة المرابطين في السروالعلن والتفّ حوله العديد من المؤيدين لأفكاره والمدافعين عنها خاصةً وخاض مواجهات سياسية وعسكرية مع المرابطين حتى توفي وجاء بعده (عبد المؤمن بن علي) الذي استطاع الانتصار على المرابطين في المغرب وقيام دولة الموحدين، واستطاع جيش الموحدين العبور إلى الأندلس لإنهاء حكم المرابطين فيها ولمواجهة خطر الممالك الإسبانية التي استطاعت استرداد العديد من المدن الأندلسية .

لذا استجاب الموحّدون لطلبات استغاثة الأندلس من قبل علماء وفقهاء ورسائل شخصية وقضاة وعند الدخول إلى الأندلس خاض جيش الموحدين معارك ضد المتمردين ممّن بقي من الحاميات المرابطية فاستغلت الممالك الإسبانية حالة الفوضى بهجومها على بلاد الأندلس التي أصبحت ولاية موحدية والخطر الثاني هو هجوم النورمانديين على سواحل أفريقيا، مما أمر عبد المؤمن بن علي ببناء مدينة جبل طارق. لتكون قاعدة لعملياته العسكرية المقبلة وإنهاء الخطر النورماندي على سواحل أفريقيا وانتصر عليهم بحملة بحرية واستعد للعبور إلى الأندلس وبعد التجهيزات والاستعدادات توفي في عام (٥٥٨هـ/١١٦٣م) .

عادت الاضطرابات إلى الأندلس ودب الضعف فيها فأعلن ملك البرتغال (الفونسو) بعد انفصاله عن مملكة قشتالة وليون، عدوانه على الأندلس واستولى على مدينة لشبونة وبعض أراضي غرب الأندلس لذلك عبرت القوات الموحدية بقيادة (يوسف بن عبد المؤمن) إلى الأندلس الذي أقام خمس سنوات لصد الهجوم البرتغالي ونجح في الصمود وإيقاف الزحف على بقية الأراضي الأندلسية .

واستقرت الأوضاع للموحدين في الأندلس وتولّى الخليفة الموحد (يعقوب بن يوسف المنصور) الحكم في بلاد المغرب واتصف بالقوة والعزيمة وعبر إلى الأندلس واستطاع إرجاع بعض الأراضي المسلمة من الممالك الإسبانية، فقد شعر (الفونسو الثامن) ملك قشتالة بخطورة الموحدين في الأندلس لذلك عمل هدنة معهم مدة خمس سنوات عاد بعدها الخليفة الموحد المنصور إلى المغرب فاستغل ذلك الفونسو الثامن بتجهيز وإعداد جيش كبير لمهاجمة مدن الأندلس مرة أخرى بعد انتهاء الهدنة فتسلم رسالة من زعيم الموحدين المنصور يقول فيها: "لاتينكم بجنود لا قبل لك بها" وقام بتجهيز جيش كبير عبروا معه إلى الأندلس قوامه ب(١٠٠,٠٠٠) جندي من الموحدين والأندلسيين الذين انضموا إليه لمواجهة جيش قشتالة يقدر ب(٣٠٠,٠٠٠) جندي على حصن الأرك في عام (٥٩١هـ/١١٩٥م)، انتصر فيها المسلمون لنجاحهم في التنظيم والتجهيز والاستعداد العسكري للمعركة التي استعدت يوماً واحداً استطاع فيها قائد من المسلمين يسمى (أبو الصناديد) مع كتيبة من المسلمين باقتحام جيش قشتالة من الوسط فعمل فجوة وقسم جيشهم نصفين . بعدها اضطر ملك قشتالة إلى عقد هدنة مع الخليفة الموحد المنصور لمدة عشر سنوات، كانت نتيجة المعركة أن اسر عدد كبير من جيش قشتالة فعفا عنهم المنصور وأعادهم إلى بلدهم فقام الفونسو الثامن بإعادة تسليحهم وتدريبهم ففي هذه الأثناء توفي المنصور في المغرب عام (٥٩٥هـ/١١٩٩م) وتولى الحكم ابنه (محمد بن يعقوب بن يوسف الناصر) الذي اتصف بالتردد وغياب الحزم في اتخاذ القرارات.

قامت مملكة قشتالة بالاعتداء على الأراضي الأندلسية كما هو المعتاد ولم تلتزم بالاتفاق المعقود مع الموحدين ولم يكتفِ الفونسو الثامن بذلك بل سعى لتحريض الكنيسة وباقي الممالك الإسبانية على استرداد الأراضي الأندلسية من خلال جمع أكبر عدد من المقاتلين لخوض معركة حاسمة مع المسلمين. برزت قوة قشتالة في المنطقة عسكرياً من بين الممالك الإسبانية وقطعت على نفسها عهداً في استرداد الأراضي الأندلسية واتصفت مملكة قشتالة من بين الممالك الإسبانية بالقوة وعدم احترامها للعهد والمواثيق.

وتوجه الخليفة الموحد الناصر بجيشه إلى الأندلس لإيقاف الخطر الإسباني فالتقى الطرفان في عام (٦٠٩هـ /١٢١٢م) في موضع بين مدينة جيان وقلعة رباح وخاض معركة خسرها المسلمون خسارة كبيرة عرفت ب(معركة العقاب) التي أنهت الموحدين في الأندلس والمغرب، كانت وقائع المعركة بأن كلا الطرفين واقف على هزيمة بينهما سهل بأرض منبسطة، جيش المسلمين كما هو معروف في تقسيماته التي تقسم إلى يمينة وميسرة والقلب والمؤخرة التي فيها عرش قائد الموحدين الناصر لكي يقود المعركة أما جيش قشتالة فقد كانت تقسيماته تشبه تقسيم جيش المسلمين، غير أن وسط جيش المسلمين كانوا من العرب والبربر فحصل نزاع في ما بينهم لذلك استغل الفونسو الثامن هذه الثغرة في قلب جيش المسلمين بالهجوم عليه حتى وصلوا إلى مؤخرة الجيش، إذ هرب

قائد المعركة الناصر وعاد إلى المغرب وانهمز المسلمون فيها، ويقدر أعداد شهداء المسلمين بنصف الجيش، ويعدّ انتصاراً حاسماً للإسبان محتفظين براية الموحدين التي ما زالت موجودة في دير بمدينة برغس في إسبانيا .

المصادر: المراكشي، المعجب، تحقيق: خليل عمران المنصور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.